سيكاغوجيا
العلاقة بين الفلسفة والأدب في الفلسفة الغربية المعاصرة

د. عمران علي عبدالله
قسم الفلسفة/ كليّة الآداب/ جامعة عمر المختار
abdullah.ali@omu.edu.ly

الملخص:

تهدف الدراسة إلى تتبُّع العلاقة بين الأدب والفلسفة، سواء في شكلها التاريخي، أو النظري، ومعرفة الظروف التي أسهمت في تشكيل هذه العلاقة، والتركيز بشكل أساسي على علاقة الفلسفة بوصفها حكمة، والأدب بوصفه بلاغة، أي العلاقة بين قوة الفكرة وجمال الأسلوب، وهو ما يتطلَّب استخدام المنهج التاريخي والتحليلي والمقارن. وبطبيعة الحال كانت الآراء متباينة، بين من يرفض العلاقة أساساً ويعتبرها مضرَّة للطرفين، فلكل منهما مجاله الخاص، وبين من يقبلها مع تفضيل طرف على آخر، وفي المحصّلة تبقى العلاقة بينهما نتيجة لتغيُّرات جذريَّة في طبيعة كل منهما بسبب التطور الطبيعي وتطوُّر طبيعة الحياة الإنسانية وتعقُّدها.

الكلمات المفتاحية: حكمة، جمال، بلاغة، فلسفة، أدب.

مقدِّمة:

يجب التأكيد قبل كل شيء، على أنَّ وجود حد فاصل بين ضروب المعرفة المختلفة، يبدو أمراً عسيراً، حتى في أرقى أشكال العلم وأكثرها دقة، فلا يمكن أن نضع حداً فاصلاً، بين الرياضيات والفيزياء مثلاً، أو بين الفيزياء والفلك، أو بين الطب والأحياء. فكيف هو الأمر في أشكال المعرفة الأقل تحديداً والأقل ضبطاً، مثلما هو الحال في الفلسفة والأدب، ولذلك يصعب تحديد ما هو فلسفي في بنية الأدب وما هو أدبي في بنية الفلسفة، بل قد يصل الأمر إلى وجهات النظر والمعايير المتباينة، فإذا كان هناك خلاف أصلاً داخل نطاق الفلسفة على ما هو فلسفة وخلاف داخل نطاق الأدب على ماهية الأدب، وهذا كله يجعل الأمر أكثر صعوبة، عندما يتعلَّق بمحاولة اكتشاف أحدهما وهو مختبئ داخل الآخر، بل قد يكون مستحيلاً، عندما نتحدَّث عن نتاج المفكرين الذين ينتمون إلى المجالين معاً، كما هو الحال عند (سارتر)، فقد خلطوا أفكارهم الفلسفية وأسلوبهم الأدبي.

يضاف إلى ذلك التاريخ الطويل، من تجاور الفلسفة والأدب، ممَّا نتج عنه علاقة متذبذبة، تكون حيناً متداخلة وحيناً متكاملة وأحايين أخرى متعارضة، ولابدَّ من التنويه أيضاً في هذا السياق، إلى أنَّ هناك عدة متغيرات ثقافيَّة وفكريَّة، كان لها الأثر البارز في إعادة تشكيل كل منهما، فقد أسهمت الطباعة وازدهار النشر للمجلات والكتب، في تحولات كبرى، سواء في الأدب أو الفلسفة، لقد أصبحت هناك نقاط تماس بين المؤلف والجمهور، وضعت المؤلف تحت ضغط التطورات اليوميَّة، ومن هنا وجد كل من الأدب والفلسفة نفسيهما تحت تأثير القلق اليومي للجمهور، فتنازل الأدب عن طابعه الكلاسيكي الذي كان سائداً خلال العصور الوسطى، كما تخلَّت الفلسفة عن طابعها الجامد.

وهذه السمة هي التي اتسم بها النتاج الفلسفي في الحقبة المعاصرة، حيث شهدت امتزاجاً غير مسبوق بين الأفكار الفلسفية والنصوص الأدبيَّة، لدرجة أنَّ بعض المدارس الفلسفية مثل الوجوديَّة، نشأت وازدهرت أفكارها في رحاب الأدب، في أعمال (سارتر) (كامو) (ولسون) و(بارت)، وبناءً على ذلك يمكن القول أنَّ ظاهرة الأدب الفلسفي والفلسفة الأدبيَّة، هي الظاهرة المميزة لحقبة الفلسفة المعاصرة.

وبشكل عام، يعتبر موضوع البحث خصباً مترامي الأطراف، يزخر بالكثير من الأسئلة، التي لا يمكن إطلاق الوعود بالإجابة عنها كلها، بل الإجابة عن بعضها والاكتفاء بإثارة بعضها الآخر، على غرار، كيف نصنِّف النصوص التي تجمع بين الفلسفة والأدب؟ هل هي ضمن النصوص الفلسفية؟ أم النصوص الأدبية؟ أم هي صنف ثالث لا ينتمي إلى هذا أو ذلك؟ أيهما لجأ إلى الآخر لكي يستنجد به؟ هل أصبح الفيلسوف أديباً، نتيجة لازدهار الأدب، أم أصبح الأديب فيلسوفاً نتيجة لرفعة الفلسفة؟ هل اتسعت دائرة الأدب لتبتلع النصوص الفلسفية؟ أم اتسعت دائرة الفلسفة لتسع النصوص الأدبية؟

لماذا يلجأ الفلاسفة إلى الأدب، هل يرغبون في التنكُّر؟ خوفاً من رقابة السلطة؟ فقرروا العمل كمرشدين سريين للحقيقة، من خلال التخفِّي على هيئة أدباء؟ لكون الأدب يعد ميداناً واسعا وتربة خصبة لزراعة الرمزيَّة؟ أم فقدت الفلسفة بريقها؟ وأصبح الفلاسفة بلا وظيفة، لأنَّ لا أحد ينصت لهم، فأصبحوا يزاحمون الأدباء؟ أم أنَّ الأسلوب الأدبي يجعل الفيلسوف أكثر غواية وقبولاً، بل يمكن أن يجعله أكثر وضوحاً أيضاً. لماذا يلجأ الأدباء إلى الفلسفة؟ هل فقد الأدب جاذبيته، وتحوَّل الأدباء إلى الفلسفة بحثاً عن أفكار جديدة تغري القرَّاء؟ ويصبح الأديب المتفلسف، أكثر نجاحاً ويتفوق على أقرانه؟ بعمق أفكاره؟

أولاً: مدخل اصطلاحي ما (الأدب)؟ وما (الفلسفة)؟

على الرغم من أهمية توضيح مصطلحي (الأدب) و(الفلسفة) بدايةً، إلَّا أنَّ ذلك لا ينسينا عدم اتساع المقام، للخوض في تفاصيل المصطلحات وخلافاتها، لاسيما والخلاف حول ماهيَّة الأدب قديم ومستمر، ولا إجماع أو حتى وفاق حوله، والخلاف على مصطلح الفلسفة أشد وأكثر وضوحاً واستمرارية، ممَّا يتطلَّب تعريفات إجرائيَّة، تركِّز على السِّمات العامة. وأهم هذه السمات هي الأسلوبيِّة والشاعريِّة والجماليِّة والفنيِّة بالنسبة للأدب، والحكمة والحقيقة فيما يتعلَّق بالفلسفة، وكيف كانت العلاقة بينهما.

1–الأدب:

تحديد ماهية الأدب بدقة، لا يبدو أمراً مضنياً فحسب، بل ومستحيلا أيضاً، نتيجة للتغيرات التي طالت المفهوم خلال مراحل تطوره في التاريخ الإنساني.(فريس، و موراليس، 1990، ص 64) كما أنَّ الحديث عن مفهوم الأدب له دلالاته المختلفة عربياً وغربياً، فقد

تطور عربياً من كونه يعبِّر عن حسن الضيافة (مأدبة) وحسن الأخلاق والتعليم (تأدب)، حتى أصبح صنعة أهل اللسان، كما يصوره (ابن خلدون)، (عبدالباري، 2009، ص ص 16-19) أمَّا وفقاً للتصور الغربي، فهو مصطلح حديث العهد في أوروبا، إذ بدأ يتحدَّد في القرن الثامن عشر، ذلك لأنَّ الأصل اللاتيني للفظ Littera الذي يدل على النصوص التي تكتب لتحفظ، أيَّاً كانت مواضيعها، وهو ما ظل سائداً بهذا المعنى حتى أواخر القرن السابع عشر.(ماشيري، 2009، ص 11)

بشكل عام، يعتبر الأدب شكلاً من أشكال الفنون الجميلة، ويتميز عن بقيتها بالكلمة، والتي تحمل غالباً دلالات متعدِّدة، منها ما هو معجمي ومنها ما هو اصطلاحي، يخضع لإيحاء الكاتب وتأويل القارئ.(عبدالباري، 2009، ص 15) أي أنَّه يهتم بالسمات الجماليَّة وما يتعلَّق بالأسلوب وقوة العرض. وبشكل عام يميز الأدب على أنَّه يستخدم لغة رمزيَّة وكلمات ذات دلالات متعدِّدة، لذلك هو يستعين بالخيال.(وليك، و وآرن، 1992، ص ص 32-36) وكل هذا يجعل من الأدب، ليس أقدم وسيلة للتعبير فحسب، بل والأهم أيضاً.(شيا، 2009، ص57) وبذلك يمكن القول في المحصلة، إنَّ أهم ما يميِّز الأدب كوسيلة للتعبير، تستخدم للتأثير على الجمهور، ونشر وذيوع الأفكار، أنَّه يركِّز على الأساليب الجماليَّة، التي تكون غالباً ذات دلالات متعدِّدة ومركَّبة ورمزيَّة.

2-الفلسفة:

إنَّ أقدم التعريفات وأكثرها التصاقاً بالفلسفة، لكون الاسم نفسه اشتق منها، هي اعتبار أنَّ الفلسفة، محبَّة للحكمة، وإن كان قبل ذلك يوصف الفيلسوف بالرجل الحكيم، إلَّا أنَّ تحولاً طرأ على المصطلح على يد (فيثاغورس) فأصبحت الفلسفة هي (محبَّة الحكمة).(Makumba, 2005, p 26) أمَّا من حيث موضوعاتها، ومنطقة نفوذها، فهي تشغل مساحة واسعة جداً من الفكر، تلك المنطقة الشاغرة الواقعة بين اللاهوت من جهة والعلم من جهة أخرى، (رسل، 2010، ص13) وهو منطقة تتقاطع فيها الأسئلة الكبرى، حول مصير الإنسان ودوره وإرادته.

وتتميَّز الفلسفة بعدَّة سمات، أهمها أنَّها ذات طبيعة (تساؤلية) أو (لماذائية)، لأنَّ قيمة الفلسفة، تزيد بقدر ما تثيره من أسئلة، وليس بقدر ما تقدِّم من أجوبة، لأنَّه عادة لا توجد

مثل هذه الأجوبة المحدَّدة، التي يمكن التحقُّق من صدقها، فهي تنقص الادعاء الزائف بوجود يقين، وهو ما يحول بين العقل وبين التأمل والتدبر.(رسل، 2016، ص 171) وذلك ملازم لطبيعتها (الشكوكية) و (الارتيابية)، الرافضة لكل أشكال اليقين. كما أنَّها ذات طابع (متمرِّد)، أي القدرة على النفاذ في ذلك القالب الميت من العرف والتقاليد، بهدف الخلاص من الأفكار المسبقة والحصول على سبيل أمثل لرؤية الأشياء. الفلسفة محاولة لتذويب عادات التفكير المتجمِّدة، والاستعاضة عنها بعادات أقل خشونة وصرامة،(وايزمان "وآخرون"، 1994، ص ص 89-92) ويمكن إيجاز كل ذلك في الطابع النقدي للفلسفة، الذي يعتبره (بوبر) هو بمثابة الدم الذي يجري في عروقها.(بوبر، 1999، ص 225)

ثانياً: مدخل تاريخي:

قد أصغت الإنسانية منذ القدم للشاعر الروماني (لوكرسيوس) وهو يملأ أبيات قصائده–عن طبيعة الأشياء– بمسائل فلسفيَّة أصيلة.(عوض، 1994، ص 72) في المقابل، كانت الفلسفة ما قبل السقراطية، وقبل ظهور النسق الأفلاطوني، يعبَّر عنها بواسطة القصيدة والشذرات النثريَّة، فتصور (بارمنيدس) للعالم صاغه في قصيدته عن الطبيعة.(أفايه، 2014، ص 206) بل إنَّ عدداً من أعمال أفلاطون ومحاوراته (الفلسفيَّة) هي أعمال أدبيَّة حقيقيَّة، وتعد محاورة (المأدبة) نموذجاً للعمل الأدبي. (شيا، 2009، ص ص 5،6) بمعنى آخر، لم يكن الفكر الفلسفي الغربي، في بدايته اليونانية يحتاط من اللغة الشعريَّة. (أفايه، 2014، ص 20 6)

وفي عصر التنوير، فرضت الفلسفة نفسها على الاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة، حيث تعطَّرت بروائح فلسفيَّة، وعلى رأسها أعمال (فولتير) الذي حوَّل مشاهد مسرحياته إلى منابر، تتصدَّرها الأفكار الفلسفيَّة والنفسيَّة، كما هو الحال مع مسرحية (أوديب) Oedipe ومسرحية (ميروب) merope. (عوض، 1994، ص73) إضافةً إلى (يوتيوبيا) (توماس مور) ورواية (بيكون) غير المكتملة (أتلانتس الجديدة) حيث كانت أعمال أدبيَّة ذات طابع فلسفي.

واستمرَّت هيمنة الخطاب الفلسفي العقلاني على الخطاب الشعري حتى خلال عصر التنوير، أمَّا في الحقبة الحديثة فقد تسلسل الخطاب الشعري إلى داخل معقل الفلسفة، وذلك

حين ارتدى قناع العقلانيَّة، ودخل بصفته شعراً معقلناً. (النبواني، 2017، ص ص 32-34) ولذلك لا يمكن أن نتصور كتاباً يؤرخ للأدب الانجليزي في القرن الثامن عشر لا يتناول بالتفصيل أعمال (باركلي) و(هيوم) و(بطلر) و(آدم سميث). (وليك&وآرن، 1992، ص 32) وحتى (كيركيغارد) الذي يصنَّف على أنَّه فيلسوف رغم إنكاره المستمر لذلك، تعد روايته (مذنب غير مذنب) هي الأكثر قدرة على البقاء من بين مؤلفاته.(ماركيه، 2005، ص 22)

ويرى (ماركيه) أيضاً أنَّ (هوغو) هو الوحيد الذي أستطاع أن يكون شاعراً وفيلسوفاً على مدى 2000 عام.(ماركيه، 2005، ص 118) ويؤكِّد (ويلسون) على أنَّ (برنارد شو) ينتمي إلى الطائفة التي ينتمي إليها أفلاطون وأرسطو، لكونه مفكراً وجوديَّاً بالمعنى العميق للكلمة، وأنَّ غوته الذي يعرفه الناس شاعراً عاشقاً، هو في الحقيقة يملك ذهنية الفيلسوف التحليليَّة القلقة، ولكن غوته الشاعر حجب غوته الفيلسوف.(ويلسون، 1971، ص ص 303، 304) من جهة أخرى، يرى (هازار) أنَّ الانجليز، كما الفرنسيس، أعطوا النثر فعالية جديدة، وشحنوه بالأفكار، جاعلين منه نثراً مقاتلاً وعدوانياً، لقد سكبوا فيه الأخلاق والدين والفلسفة كلها.(هازار، 2009، ص 415)

وبشكل عام، يمكن التأكيد على أنَّ الفلسفة المعاصرة، انتفضت على كثير من المقاييس العقلانيَّة، التي تميز بها الفلسفات السابقة، وانتهى عدد كبير من المهتمين بالفكر الفلسفي المعاصر أمثال (دولوز) و(دريدا) إلى القول أنَّ المسألة لا تتعلَّق بمجال معرفي أو إبداعي معيَّن، بقدر ما تشمل قضية جوهريَّة، يمكن تلخيصها في قضية الكتابة. (أفايه، 2014، ص 207) أي أنَّه خلال تاريخ الفكر الإنساني وخاصة في الحقبتين الحديثة والمعاصرة، كانت العلاقة بين الفلسفة والأدب وثيقة جداً، إلى حد وجود شعراء فلاسفة وفلاسفة شعراء.

أمَّا الجانب النقدي، فلم يكن الفلاسفة الغربيون يتحرَّكون داخل دوائر فلسفيَّة مغلقة على الفكر الفلسفي، لكنهم جميعاً وبلا استثناء تقريباً كانوا منظِّرين في النقد والدراسات اللغويَّة، فقد كانت المناقشات الدائمة حول هذه الأمور الفلسفيَّة تقودهم دائماً إلى الحديث عن الإبداع الأدبي والفني ووظيفة اللغة.(حمودة، 1971، ص 113)

هذا ومثلت الفلسفة جزءاً من النقد الأدبي، وذلك حين تطرح الفلسفة أسئلتها النقدية المعتادة، حول ماهية الأدب وشروطه معاييره، ولعلَّ أشهر النماذج في هذا السياق هو كتاب (كانط) (نقد ملكة الحكم) الذي يعزى له تكريس الفصل بين مجال الفن (بما فيه الأدب) ومجال العلم. (ماشيري، 2009، ص 11) وأيضاً (سارتر) في كتابه (ما الأدب) والذي تناول فيه عدة قضايا مثل ماهيَّة الأدب ومعايير الأدب الملتزم و(لماذا نكتب؟) و(ما الكتابة؟) و(لمن نكتب؟) والنقد الأدبي تربطه بالمذاهب الفلسفيَّة الكبرى، علاقة وطيدة ومتواترة. كما أنَّ هناك العديد من أشكال النقد الأدبي استعارت مناهجها من الفلسفة، كما حدث بخصوص (النقد البنيوي للأدب).

وقد شكَّلت أعمال (دريدا) مجموعة جديدة متكاملة من الاستراتجيات القويَّة، التي وضعت (ناقد) الأدب، لا على قدم المساواة مع الفيلسوف، وإنَّما وضعته أيضاً ضمن علاقة معقدة -إن شئت قل تنافسيَّة- مع الفيلسوف نفسه، وقد أدَّت هذه العلاقة إلى كشف الادعاءات الفلسفيَّة وتعريضها للتساؤل البلاغي، وقد وصف (بول ديمان) هذه العمليَّة التي يتحوَّل فيها الأدب ليكون الموضوع الرئيسي للفلسفة، فضلاً عن كونه أيضاً نوعاً من الحق الذي تنشده الفلسفة، والناقد عندما ينتبه إلى الطابع البلاغي للمحاورات الفلسفيَّة، بأن يكون في وضع قوي، يعكس تلك الإساءة القديمة إلى الأدب بأنَّه مجرَّد شكل من أشكال اللغة الخادعة التي تحط من القدر.(نوريس، 1981، ص 61) ووصل الأمر، لدرجة أصبح تمجيد الفيلسوف الناقد، هو تمجيد للشاعر أيضاً.(دريدا، 2012، ص 181) بل هناك في تاريخ الفلسفة العديد من الحالات، التي تدل على ولع بعض الفلاسفة بنصوص بعض الشعراء، وصل الأمر إلى تأليف كتب ودراسات نقديَّة حولهم، كما فعل (فوكو) مع (روسيال) وهو أمر لا يختلف عما فعله (هيدجر) مع (هولدرين).

ثالثاً: العلاقة بين الفلسفة والأدب:

يعلمنا تاريخ الفلسفة-خاصة في الفكر الغربي- أنَّها كانت تشمل كل العلوم والأنشطة الفكرية، فكان الفيلسوف لا يترك مجالاً إلَّا ويخضعه لنمط سؤاله العام، ويدخله ضمن تصوره عن العالم والإنسان والمجتمع، فنجد لديه آراء في السياسة والعلوم والاجتماع والفن والأدب واللغة. (أفايه، 2014، ص205) ومن بين كل العلوم كانت العلاقة بين

الفلسفة والأدب وثيقة جداً، فقد ضمَّ لفظ الشعر بين أعطافه، الفكر الذي يشبه الفكر الفلسفي مثل مصير الإنسان والوجود والحياة والموت والكون والصيرورة.(عبدالبديع، 1997، ص6) كما كانت الكثير من الكتابات الفلسفيَّة، تتسم بمناقب أدبيَّة، (هوتدرتش، 2002، ص38) وهو ما يجعل العلاقة بينهما أكثر تعقيداً والتباساً، فهما خلال فترة تاريخية طويلة، لم يكونا منفصلين.(ماشيري، 2009، ص11) ولذلك تعد حدود هذه العلاقة وطبيعتها دائما مثاراً للجدل، منذ العصر الإغريقي وحتى عصرنا هذا. (أيرس، و ماغي، 2018، ص9)

وعلى الرغم من هذه العلاقة الوثيقة، إلَّا أنَّه لا يمكن–حتى الآن– الحديث عن علاقة بين الفلسفة والأدب، وكأنَّ أحدهما فرع للآخر، مثل علاقة الفلسفة بالميتافيزيقا أو المنطق، ولذلك قد يبدو أنَّ العلاقة بينهما، تعاني من نفس المفارقة التي تعاني منها علاقة الفلسفة بالفروع المعرفيَّة الجديدة الأخرى (الفلسفة والتكنولوجيا مثالاً) وبالتالي يفتقر هذا المجال إلى التماسك ويبدو مجزأً، وأفضل وصف لكل دراسة من دراساته هو التخطيط أو المحاولة، والمناقشات النقديَّة هي الأفضل. وما لم تؤخذ علاقة الفلسفة بالأدب على محمل الجد، وتعتبر مجالاً فرعيَّاً للفلسفة، وتحدِّد الأرضيَّة المشتركة للحوار والنقاش والإشكاليَّات، فلن يحرز هذا المجال أي تقدم.(Chen, 2017, p 472) فلم تصبح فلسفة الأدب فرعاً ناضجاً من فروع الفلسفة، ولا أصبح الأدب الفلسفي، فرعاً معترفاً به في مجال الأدبيَّات.

1– أطروحة معارضة:

تُعد علاقة الفلسفة والأدب قضيَّة فكريَّة، فيها أطروحات مؤيِّدة ومعارضة، فهناك من يرى أنَّ التاريخ يكشف عن حالة من النديَّة والإقصاء بين الفلسفة والأدب، وكأنَّ ما كان لأحدهما أن يحدِّد هويته إلَّا على حدود الآخر، وذلك منذ نشوء الفلسفة، التي قدَّمت نفسها آنذاك بوصفها طريقة جديدة لفهم العالم، تعتمد على السببيَّة والغائية، التي تحل محل التفسير الأسطوري للعالم الذي يعتمد على المخيلة والبلاغة والأسلوب الشعري. (النبواني، 2017، ص ص 32-34)

ويُعد (أفلاطون) هو أول من أعلن صراحةً، هذه القطيعة، مؤكداً على أنَّه إذا استتب أمر الحكم للفلاسفة وحكموا دولته المثلى، فعليهم أولاً، طرد الشعراء منها، "لأنَّ بين الشعر والفلسفة معركة قديمة العهد" وإن كان الموقف الأفلاطوني يبدو متردداً بين الفلسفة والفن، ولم

يستطع أن يتخذ موقفاً نهائيّاً يحدِّد فيه الجانب الذي ينحاز له، فلا يدري هل كان الفن وسيلة لغاية هي الفلسفة؟ أم أنَّ الفلسفة وسيلة لتحقيق غايات الفن؟(أفلاطون، 2004، ص 159)

وقد كان هناك من ينادون بفصل الفلسفة عن الأدب، ليس لكونهما مختلفين فقط، بل إنَّ الاتصال بينهما يضر بهما أيضاً، وهناك الكثير من نقاط الاختلاف التي تميِّز بين الفلسفة والأدب، تتسم الفلسفة بالموضوعيَّة والابتعاد عن الذاتيَّة، بينما يتسم الأدب بالذاتيَّة، فهو أكثر قدرة في التعبير عن المشاعر الإنسانيَّة، وهو ما دفع (أريس) للقول بأنَّ من الممتع أن يكون المرء فناناً على أن يكون فيلسوفاً، لكون الفن يغذِّي العاطفة بينما الفلسفة تحاول أن تكبح جماحها. (أيرس&ماغي، 2018، ص 33)

واستند البعض في الفصل بين الأدب والفلسفة إلى فوارق منهجيَّة، فمناهج الفلسفة أكثر دقة والتزاماً، بينما الأدب أكثر مرونة، ولذلك فإنَّ أصالة التفكير الفلسفي، يحدُّدها مدى بعده عن العنصر الأدبي، والتزامه بالمناهج الفكريَّة الصارمة، لكون العنصر الأدبي يمثِّل نقطة ضعف إذا تسلل إليها. (ماشيري، 2009، ص 12) كما أنَّ الأدب يهتم بتنوُّع الحياة الثري، بينما تميل الفلسفة إلى التجريد لكي تصوغ قوانين عامة.(طودوروف، 2007، ص45) والكتابة الفلسفيَّة تميل غالباً إلى الدقة، ومحدّدة المعاني، بينما أهم مزايا الكتابة الأدبيَّة، هي الاستعارات والمجاز، ممَّا يطلق العنان للدلالة، ولذلك يميل الأدب إلى الغموض، ويمعن الأدباء في إخفاء المعاني حتى في بطونهم، بينما تصر الفلسفة على الوضوح ويكابد الفلاسفة من أجل التوضيح.

ولذلك ذهب البعض إلى القول بعدم وجود أي دور للفلسفة في الأدب، وحتى أولئك الذين يتحدَّثون عن فلسفة (تولستري) فهو محض حديث عابث يصح إدراجه في سخف الكلام، ويعد أيضاً (برنارد شو) مثالاً مخيفاً للكاتب الذي يتوهَّم أنَّ لديه فلسفة، ومن المحاسن أنَّها لم تؤثِّر على مسرحياته. فالبون شاسع بين الفلسفة والأدب وهو ما يعبِّر عنه (أليوت) بوضوح حين ينفي أن يكون من مهام الشاعر أن يفكِّر، كما ليس باستطاعة (شكسبير) أو (دانتي) أن يجترحا التفكير. (أيرس، و ماغي، 2018، ص51) فالأدب الفلسفي، هو أدب أولاً، ثم هو فلسفي، فهو يلتزم بمعايير الأدب رواية ومسرحاً وشعراً،

ولكنه أيضاً يحمل بعداً فلسفيّاً، ويبقى مع ذلك فناً جميلاً، يحمل من الفلسفة تلك الـ(لماذا) المقلقة هو يحمل من الفلسفة آفاقها وقضاياها وتحدياتها، إنَّه يتخذ الإنسان موضوعاً له، وهو لذلك فلسفي، بينما يبقى له من الفن جماليته وتفرُّده وأصالته. (شيا، 2009، ص 13)

في المقابل وعلى الرغم من أنَّ الفلسفة ليست حقلاً معرفيّاً منتمياً إلى الأدب، لأنَّ الكتابة الفلسفيَّة وأهميتها، تكمن في اعتبارات أبعد من القيمتين الأدبيَّة والجماليَّة، إلَّا أنَّ الفيلسوف قد يعرض أفكاره مستخدماً أسلوب الكتاب الأدبيَّة، فتلك مزيَّة تُحسب له، وتجعل كتاباته على قدر من الغواية التي تدفع الآخرين لدراسته، غير أنَّ الكتابة الفاتنة، لن تجعل منه فيلسوفاً أفضل. (أيرس، و ماغي، 2018، ص 20)

وحتى ميزة الغواية التي تجعل الفلسفة أكثر رواجاً، دفع الفلاسفة —خاصة الوجوديين– ثمنها باهظاً، فقد كسبوا جمهوراً واسعاً بفضل كتاباتهم الأدبيَّة في الرواية والمسرح، إلَّا أنَّ ذلك جعل أفكارهم الفلسفيَّة أكثر عرضة لسوء الفهم. (بوشنسكي، 1990، ص 209) وهو ما أدَّى إلى فشل الوجوديَّة وفقاً لرؤية (ولسون) خاصة وجوديَّة (سارتر) و(كامو) التي انتهت إلى العدميَّة بسبب سوء طرحها أدبيَّاً.(Wilson, 1968, 147) وقد أدَّى هذا إلى هذا الواقع المسدود حيث تلوح الفلسفة والأدب الآن في أزمة.(ويلسون، 1978، ص 19) والتي تتجلَّى في كونهما لا يقدِّمان جديداً ولا يغيِّران الواقع، لأنَّهما يدعوان إلى اليأس والعزلة.

في المحصِّلة انتهى الأمر بالقول إلى أنَّه لا حاجة لأي منهما للآخر، فالفلسفة (الحكمة) أو (الحق) ليست في حاجة إلى البلاغة والأسلوب الأدبي، فلا يضر الحق أن يكون قبيحاً وليس هناك ضرورة للمزج بين الحق والجمال.(ماشيري، 2009، ص 24) ولذلك نجد فيلسوفاً بحجم (كانط) يرى أنَّ شيوع مثل هذا النمط من الكتابة (الفلسفة الشعريَّة) هو دليل على وجود شعراء زائفين، وأنَّ ذلك قد يؤدِّي بطبيعة الحال إلى موت الفلسفة، بل يتمادى كانط في نقده وسخريته إلى حد اعتبار أنَّ كتابة الفلسفة بأسلوب شعري هو يشبه كتابة دفاتر التجَّار بأبيات شعريَّة. (النبواني، 2017، ص 35) ولعلَّ كانط يشير هنا إلى أنَّ كل فرع معرفي أو طريقة تفكير له أسلوبه الخاص فكما للشعر أسلوبه المجازي، فللفلسفة أسلوبها الرصين، وللتجارة لغة الأرقام.

2- أطروحة مؤيدة سيكاغوجيا (Psychagogie)

أ- مبرّرات العلاقة بين الفلسفة والأدب:

يرى (فاليري) أنَّ الشكل يكلِّف غالياً، وذلك للدلالة، على أنَّ الأسلوب، قد يكون مساوياً تماما للمحتوى.(بارت، 2002، ص 81) كما يذهب (غادامير) إلى أنَّ الكلام الفصيح، دائما يجمع بين معنيين، أنَّه بلاغي وأنَّه يقول الحقيقة.(غادامير، 2007، ص 69) ونجد جذور هذا الطرح لدى أفلاطون حين ربط بين الفلسفة والأدب في سياق العلاقة بين الخطيب والفيلسوف، لكي يمثِّلان معاً السياسي الناجح، ولذلك ميّز أفلاطون بين نوعين من البلاغة، **البلاغة السيئة** أو (البلاغة السوفسطائيَّة) التي يستخدمها الخطباء للتوهيم ونشر الخرافة، بينما **البلاغة الحقَّة**، هي البلاغة الفلسفيَّة أو (سيكاغوجيا Psychagogie)، التي تُعنى بالحقيقة، أو تنشئة النفس بواسطة القول.(أفلاطون، 2000، ص 17) ويقول سقراط لـ(فيدروس) أنَّه لكي تبرع في فن القول (سيكاغوجيا) أو فن توجيه النفوس، لابد أن تتعلَّم الفلسفة، لأنَّ الفكر لا يرتقي بدونها.(أفلاطون، 2000، ص 101)

وتعبِّر (سيكاغوجيا) عن قدرة الشخص العاقل على قيادة الآخرين، وذلك لأنَّه يتميَّز بامتلاك طرق مميزة للتواصل معهم إمَّا بالوعظ الأخلاقي أو لأنَّه يملك طريقة لقيادة الروح بواسطة الكلمات. (CLARENCE E, 1995, p 17) ويرى (فوكو) أنَّ العلاقة بين (فن القول) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة والسياسة، وتحوّل بها الفلسفة بوصفها تقنيات عقلية الروح إلى مزيج بين الفيلسوف والمحاور. وبالتالي تحتاج الفلسفة إلى فن الخطاب بقدر ما تحتاج إلى الكشف عن الحقيقة.

فالأدب هو أحد أساليب التعبير عن الأفكار الفلسفيَّة، وهو أداة بالغة القوة والدلالة، ولا غنى عنها في الفلسفة، إذا كانت تطمح للتأثير. (شيا، 2009، ص 112) لأنَّ الأسلوب السردي وحده، هو ما قد يدفعك لتفضيل (برجسون) على (كانط). (وليك، و وآرن، 1992، ص34) وحين دمج (نيتشة) في الفلسفة وسيلتي تعبير، الكلمة الجامعة والقصيدة، استطاع هذان الشكلان بالذات أن يستتبعا تصوراً جديدا للفلسفة، وصورة جديدة للفكر والمفكر.(دولوز، 1998، ص19) وهو ما نجده في نهج الفيلسوف (سيوران)، لأنَّه يقدّم فلسفة ولكن من نوع خاص (مقالي–أدبي)، لا يستخدم الحجج

فحسب، بل يستخدم أيضًا الوسائل التعبيريَّة الخطابيَّة لإقناع القارئ. (Marius, 2011, p 47) أمَّا (هيغل) فقد تحوَّل أسلوبه الغامض في الكتابة إلى مثار للسخريَّة والنقد. (أيرس&ماغي، 2018، ص19) ممَّا يعني أنَّ الأسلوب يؤثِّر سلباً أو إيجاباً على تعاطي جمهور القرَّاء مع الفكرة.

ولذلك يلجأ الفلاسفة للأسلوب الأدبي، لجعل أفكارهم أكثر رواجاً، فهناك من النصوص سواء كانت أدبيَّة أو حتى نصوص النقد الأدبي، لا تحمل فكراً فلسفيَّاً فحسب، بل وقادرة حتى على الترويج له أيضاً. (ماشيري، 2009، ص98) وأشهر الأمثلة هم الفلاسفة الوجوديون، حيث استطاعوا التعبير عن أفكارهم الوجودية في المسرحيات والروايات، تعبيراً ربما أقوى من البحوث الفلسفيَّة، وحملت رواياتهم مثل (الطاعون) و(الغثيان) و(جلسة سرية) إلى آلاف القرَّاء، ولوعيهم بهذه الحقيقة أبرزوا قدراتهم بوصفهم كتاباً مبدعين، على نحو ما أبرزهم بوصفهم فلاسفة، أمثال (كامي) و(سارتر) و(مارسيل).(ماكوري، 1990، ص284)

وقد يستخدم الأسلوب الأدبي للتبسيط، إذا ليس بالضرورة أن يكون القارئ ملماً بالفلسفة، لكي يفهم الأفكار الوجوديَّة، فقد صاغها فلاسفة أمثال (سارتر) بشكل جذَّاب في رواياتهم ومسرحياتهم. (أفايه، 2014، ص 207) وبذلك وصلت لآلاف من البشر لا يقرؤون بحوثاً فلسفيَّة متخصِّصة قط. (ماكوري، 1990، ص 284) يمكن القول باختصار أنَّ الأسلوب الأدبي الجمالي يجعل النص الأدبي أكثر إغواء وأكثر إقناعاً وأكثر بساطة.

من جهة أخرى قد تفرض طبيعة الأفكار الفلسفيَّة أسلوباً خاصاً بها، كما هو الحال مع الأفكار والقضايا الوجوديَّة ذات الطابع اليومي والمباشر، التي لم يكن ممكناً التعبير عنها بلغة فلسفيَّة متصلبة، وهو ما دفع البعض إلى القول، إنَّ الوجوديَّة الحقيقيَّة لا يمكن أن يعبِّر عنها باللغة المنطقيَّة العادية، ويمكن التعبير عنها فقط في المسرح والشعر. (ويلسون، 1971، ص375) ولذلك أكَّد (ويلسون) على أنَّه لا يوجد فيلسوف مؤهَّل للقيام بعمله ما لم يكن روائياً أيضاً.(Wilson, 1969, p 264) وإنَّ جوهر الوجوديَّة هو ما يدركه الفيلسوف الشاعر بفطرته.(ويلسون، 2004، 233) فالوجودي، هو الفيلسوف الفنان، أمَّا طريقة التعبير عنده، فهي القصة أو المسرحية. (ويلسون، 1971، ص306) وهو ما يفهم منه أن

الوجوديَّة مدينة في وجودها إلى تطوُّر الأدب الوجودي، والارتقاء باللغة اليوميَّة، إذ يرى (ميلان كوندرا) أنَّ فلاسفة الوجوديَّة منحوا كلمات الحياة اليوميَّة مثل (قلق وثرثرة) دلالات فلسفيَّة.(كونديرا، 2007، ص 361)

وقد يتشارك الأدب والفلسفة في فهم العالم والإنسان، فوفقا لرؤية (ريكمان) فإنَّ دور الأدب قد يتجاوز الدور الجمالي، ويساعدنا على فهم طبيعتنا البشريَّة، يكون متاحاً أكثر من خلال كتابات عباقرة لهم خيالهم الخصب، أمثال (دستوفسكي) و(شكسبير).(ريكمان، 1979، ص 176) وفهم الطبيعة البشريَّة، هي من أهم الأهداف التي تسعى الفلسفة إلى تحقيقها. فهو في العموم، يستطيع أن يجعلنا أكثر فهما للعالم، ويعيننا على أن نحيا، فهو يسعى لفهم التجربة الإنسانيَّة (أسوة بالفلسفة والعلوم الإنسانيَّة)، وبالتالي يمكن لـ(دانتي) أو (سيرفنتيس) أن يعلمنا عن الوضع البشري، كما يفعل كبار علماء الاجتماع، دون أن يكون هناك تعارض بين المعرفتين. (طودوروف، 2007، ص 45)

يقدِّم (كاسيرر) رؤية أخرى لتبرير هذه العلاقة، حيث يرى أنَّ الإنسان لم يعد قادراً على مواجهة الحقيقة مباشرة، أو يحدِّق فيها وجها لوجه، لذلك لا يعالج الأشياء مباشرة، لذلك يغلِّفها بالأشكال اللغويَّة والصور الفنيَّة والرموز الأسطوريَّة.(المحمداوي، 2013، ص 195) فلولا الفن لقتلنا الحقيقة، كما يقول (نيتشة). والجدير بالذكر في هذا السياق، أنَّ قضية الرمزيَّة، لا ترتبط فقط، بتخفيف وطأة الحقيقة، والتقليل من جرعتها، بل تأتي أيضاً، في سياق الحملات المسعورة التي شنتها النظم السياسيَّة بأدواتها الفكريَّة مثل التشدُّد الديني أو قمع حرية الفكر، ضد الفلسفة والفكر والحر، وما ترتَّب على ذلك من موقف مجتمعي، ضد الفلسفة، وهو ما تطلَّب لغة رمزيَّة يختبئ خلفها الفلاسفة لتمرير أفكارهم، وقد يكون السبب ليس الخوف على أنفسهم، بل تفادياً لنفور الآخرين، والتقليل من ردَّة فعلهم العنيفة.

أمَّا على صعيد الأدب، أو لماذا يلجأ الأدباء إلى الفلسفة، فذلك لأنَّ أقوى القراءات، والأكثر ملاءمة للأعمال الأدبيَّة، هي تلك التي تتعامل معها، على أنَّها إيحاءات فلسفيَّة، من خلال تتبُّع وإظهار الآثار المترتبة على تعامل تلك الأعمال، مع المعارضات الفلسفيَّة التي تدعمها.(Florentsen, 1996, p 89) فلا قيمة للفلسفة إن لم تلمس الآني واليومي في حياة البشر، كما لا قيمة للعمل الأدبي حين يكون خالياً من المعنى، فالبعد الفلسفي هو

الذي يمنح العمل الأدبي الحقيقي ما يحتاجه من فكر وعمق وثقافة، ويسمح له بأن يكون تجربة إنسانيَّة ثريَّة، تجربة تبدأ من الآني والفردي والعابر، ولكنها تخاطب وتصل إلى الجماعة حيث لا تموت ولا تنتهي. (شيا، 2009، ص ص 5،6)

ب- ظروف وسمات مشتركة:

هناك من يرى أنَّ هناك عوامل أوسع وأشمل، تفرض تحولاً مزدوجاً، طال الفلسفة كما طال الأدب، وأول هذه المتغيرات هي (الحداثة الغربية)، فإذا كان اليونان لهم الأسبقيَّة في التأكيد على العلاقة بين الجمال والخير، فميزة الحداثة أنَّها أدَّت إلى العلاقة بين الجمال والحقيقة.(ماركيه، 2005، ص 383) ولقد عرفت الحركة الثقافيَّة المعاصرة بشكل عام، تحولاً كبيراً، وهو ما أطلق عليه (ميشيل سيرس Michel Serres) مصطلح الثقافة الحيويَّة (bioculture)، حيث طرأت تغيُّرات كبيرة بسبب التقدُّم التقني والاقتصادي والعلمي، ممَّا فرض على الكتَّاب والمفكِّرين أسلوباً جديداً في التعامل مع الآخر. (Desblache, 2012, 246) حيث أصبحت العواطف والمشاعر، مع تقدُّم الحياة وتعقُّدها مشبعة بالأفكار، وأضحت بذلك أكثر عقلية، وذلك أمر بالغ العمق، في علاقة الأدب بالفلسفة. (شيا، 2009، ص 107)

فقد تخلَّت الفلسفة، عن صرامتها (الاسكولائيَّة) التي رافقتها خلال العصور الوسطى وردحاً من العصور الحديثة، وحلَّت محلَّها الروح الإنسانيَّة، كما أنَّ التغيُّر طال الشعر- أو بالأحرى فهم الشعر- حيث لم يعد مجرد مجموعة من الانفعالات والعواطف، بل أصبح يفهم على أنَّه يتضمَّن عقلانيَّة أيضاً تسير جنباً إلى جنب مع العاطفة.(الجهاد، 2001، ص 8) وأصبح الأدب في الحقبة المعاصرة أكثر تعقيداً، وأصبح محتواه فلسفيَّاً.(تريشيه، "د.ت", ص 15) ولابد لكل أدب أصيل، أن يكون مسكوناً بالفلسفة، كما لو كان مسكوناً بشبح لا يمكن طرده.(ماركيه، 2005، ص 20) وقد تخلَّى الأدب عن لغته الكلاسيكيَّة، وأصبح يستخدم اللغة المحكيَّة، ليس على سبيل الإضحاك، بل لكونها مواضيع جوهريَّة.(بارت، 2002، ص 107)

ولقد سعى الأدب منذ قرن، إلى تبديل مظهره، ليكون بلا ميراث، إذ لم يعد يعتبر الأدب كما يتصوره (رولان بارت)، صيغة تداول متميزة اجتماعيَّاً، بل ينظر إليه على اعتباره

لغة متماسكة عميقة حافلة بالأسرار معروضة وكأنها حلم وتهديد بآن واحد، ولهذا السبب، أصبح الشكل الأدبي، يثير المشاعر الوجوديّة المرتبطة بخواء كل المواضيع: مثل الغرابة والألفة والنفور والمجاملة. (بارت، 2002، ص 8) بشكل عام تغيَّر معنى الأدب في فرنسا (مثلاً) تدريجيًّاً، خلال القرن الثامن عشر، وبصورة نهائيَّة في مطلع القرن التاسع عشر، فلم يعد نخبويّاً بل أصبح فنيّاً، فأصبح يضم كل الكتابات الفنيَّة، وأصبح الذوق والانفعال أموراً أساسيَّة بحيث صار العقل تابعاً للشغف. (فريس، و موراليس، 1990، ص 67)

وهذه التغيرات التي طالت الفلسفة والأدب معاً، يترتَّب عليها أنَّ فهم أي منهما مرتبط بفهم الآخر، كما يقترح (كوندرا) حيث أنَّ فهم طبيعة الواقعيَّة الروائيَّة في بداية القرن 18 وما بعدها، يكون ممكناً، إذا ما لجأنا إلى أولئك الذين يحترفون تحليل المفاهيم وهم الفلاسفة؛ وذلك لأنَّ التغيرات التي طرأت على الأدب، كانت مصاحبة بتغييرات طرأت على الفلسفة، فقد كانا يشتركان (الفلسفة والأدب) في تناول قضية الواقعيَّة، وأيضاً الفردانيَّة والهويَّة.(بارت "وآخرون" ، 1992، ص ص 11–18) ويؤسِّس على ذلك، جدليَّة العلاقة بينهما، فهو يرى أنَّ خطأ الأخطاء، هو التفكير بأنَّ العلاقة بين الفلسفة والأدب تقوم في اتجاه واحد، وأنَّه ما دام (حرفيو القص) (الأدباء) بحاجة إلى الأفكار، فإنَّهم لا يستطيعون استعارتها إلَّا من (حرفيي الأفكار) (الفلاسفة)، ولكن ذلك ليس دقيقاً، فقد حدث ذلك لتطور طبيعي للرواية. (كونديرا، 2007، ص 468)

ويمكن الإشارة إلى نقاط عدَّة تتقاطع فيها الفلسفة مع الأدب، فكلاهما من حيث الإطار العام، يعد نتاجاً إنسانيّاً، يرصع به الإنسان، جدران بنيانه الحضاري، وبغض النظر عن أسبقيَّة أحدهما عن الآخر، إلَّا أنَّهما كانا دائماً يمثِّلان أهم مظاهر الحضارة الإنسانيَّة عموماً، ومن جهة أخرى، يتقاطع كل من الأدب والفلسفة من حيث الموضوع ألا وهو (الإنسان) ومشاعره وقضاياه، كما يمكن الحديث عن تقاطع من حيث الوظيفة وهي (تعرية الواقع) وإضفاء المعنى والقيمة عليه، وفقاً للتصوُّر (النيتشوي) لأنَّ الفلسفة ترغب في نفس ما يرغب فيه الفن، وهو إضفاء أكثر ما يمكن من العمق والمعنى على الحياة على الحركة.(نيتشة، 2002، ص 20)

ويعد (التمرُّد) فمن المعروف تاريخيّاً أنَّ الأدباء كما الفلاسفة، هم الأكثر تمرُّداً والأكثر نقداً للمجتمعات والشعوب والحضارات، (وهذا لا يعني عدم وجود من هم خلاف ذلك، أي من يبررون عادات مجتمعاتهم وحضاراتهم) ولكن بشكل عام، يعتبر الأديب والفيلسوف هما الأكثر تمرُّداً على السائد والعام، والأكثر جرأة في طرح الأسئلة، وفي كشف عيوب المجتمعات والأفكار وفضحها، ولذلك يتسم ما يقولانه عادةً بالغموض، وفي أحسن الأحوال بالانفتاح على قراءات وتأويلات لا حصر لها. وقد يكون هناك تكامل بينهما، فالأدب مثلاً يحاول أن يصف لنا الحياة ويشرحها، بينما على الفيلسوف أن يكشف عن مشاكلها وصعابها، ثم في النهاية يحال الأمر إلى العلماء ليبحثوا عن حلول، وهم تحت أنظار الفلاسفة.

ج–اللغة البيضاء (صعوبة الفصل بين الفلسفة و الأدب):

يرى العديد من الفلاسفة والمفكرين، أنَّ التقارب بين الفلسفة والأدب، يصل إلى حد الامتزاج والتماهي، لدرجة يصعب الفصل بينهما، أو تمييز أحدهما عن الآخر. فقد تداخلت الفلسفة مع الأدب، وأنَّهما ممتزجان امتزاجاً معقداً. وبناءً عليه، فإنَّ الخطاب الأدبي الصرف، والخطاب الفلسفي الصرف، لا وجود لهما، ولا يمكن أن نجد إلَّا خطابات ممتزجة.(ماشيري، 2009، ص ص 5–22) الصرح الشعري الذي شيده (فوكو) تمجيدا لـ(روسيل) في نص لا ينتمي إلى الأدب ولا إلى الفلسفة، لأنَّه في منتصف الطريق بينهما، وهو لا يختلف عن محاولة (هيدجر) لقراءة شعر (هولدرين).(ماشيري، 2009، ص 339) في القراءات التي تؤكِّد وتنكر الاختلاف بين الفلسفة والأدب، يوضِّح التفكيك اعتماد الفلسفة الذي لا مفرَّ منه على المجازات والمخططات. يُنظر إلى الفلسفة الأدبيَّة على أنَّها تخرِّب ادعاءاتها المعرفيَّة للعقلانيَّة. في الوقت نفسه، يستخدم النقَّاد كلمات مثل الصرامة، والتصحيح والصواب والحقيقة والبصيرة. .(Florentsen, 1996, p 88)

ويذهب (دريدا) في اتجاه آخر، معتبراً أنَّ المشكلة الأهم، هي كيف نحدِّد أصلاً طبيعة اللغة الفلسفيَّة؟ هل هي (اللغة الطبيعيَّة) أم مزيج من اللغات الأخرى مثل اليونانيَّة واللاتينيَّة والألمانيَّة؟(دريدا، 2019، ص 241) وهو بذلك يضع صعوبة لينفي من خلالها وجود لغة فلسفيَّة، وفي المقابل يرى أنَّ الشعر والفلسفة وجهان لعملة واحدة (اللغة الملغَّزة) وفي الوقت ذاته كانت تلك اللغة هي الرحم التي ولدا منه. (ماركيه، 2005، ص 20) وحاول أن يثبت

باستخدام استراتجيات بلاغيَّة، وخاصة في كتابه (بطاقة بريدية) the post card هو تنبيه القارئ، لضبابيَّة الحدود بين حقول المعرفة، كما هو الحال بالنسبة للفلسفة والأدب، بل ومن المستحيل الفصل بشكل صارم بين البعد الشعري للنص وبين المحتوى.(ليتشه، 2008، ص 226) وبالتالي استحالة إرجاع لغات الفلسفة (وكذلك العلم) إلى الغايات المعرفيَّة وحدها، على نحو يحذف منها كل مكون أدبي، فالتفكيكيَّة توحي بهشاشة هذا الفرق بين الفلسفة والأدب، فالنص تختفي فيه الفروق والأجناس.(هبرماس، 1995، ص 293)

ويؤكِّد أيضاً على أنَّ كل المحاولات لفصل الفلسفة عن الأدب، وتأكيد كون الفلسفة خطاباً حول الحقيقة منزَّه عن أهواء الكتابة، ستصطدم —دون أن تتوقَّع ذلك- بواقع تشكيل النص الفلسفي، لأنَّ اللغة الفلسفيَّة هي لغة مجازيَّة أساساً، وهو ما يؤكِّد عجز النص الفلسفي عن التعبير عن ذاته، حيث يظل في حاجة دائمة للمجاز، لكي يظهر جليَّاً واضحاً، فالفلسفة تكشف عن قدرتها في الإفصاح من خلال الاستعارة.(بلكفيف، 2015، ص 307) ممَّا يعني أنَّ علاقة الفلسفة بالمجاز متينة، ولكن حضور المجاز في الفلسفة، أكثر من حضور الفلسفة في المجاز. (بلكفيف، 2015، ص 315)

ولذلك يرى (بارت) أنَّ التصنيف بالنسبة لنصوص الأدب والفلسفة لم يعد ممكناً، لأنَّ الكتابة أصبحت تجمع كل الأجناس الفلسفيَّة والأدبيَّة، أو ما يُطلق عليها وصف الكتابة (البريئة) أو يصفها أحياناً أخرى بالكتابة (المحايدة)، والتي تكتب على حد وصفه أيضاً باللغة (البيضاء) وتعد رواية الغريب (لكامو) ليست أبرز أمثلها فحسب، بل وبداية تدشينها أيضاً.ولقد اختصرت الكتابة حينئذ إلى نوع من الصيغة السالبة، تتهدَّم فيها الخصائص الاجتماعيَّة، أو الأسطوريَّة للغة، لفائدة حالة محايدة، وحالة عطالة للشكل، وبذلك يحتفظ الفكر بكامل مسئوليته، ولا يستمدها من التزامه الإضافي بالشكل.(بارت، 2002، ص ص 100، 101)

وعلى الرغم من الاتفاق العام بين العديد من المدارس والفلاسفة، على أنَّ هناك وحدة عضويَّة بين الأدب والفلسفة، وأنَّهما متكاملان وممتزجان، إلَّا أنَّهم اختلفوا فيما بينهم على أيهما أكثر أهميَّة، وأيهما يأتي أولاً؟ فهل الأدب له الأسبقيَّة، وتتبعه الفلسفة؟ أم العكس؟ حيث يلحق الأدب بالفلسفة؟

ويمثِّل (فاليري) الاتجاه القائل بأسبقيَّة الأدب، فهو يرى أنَّ الفلسفة بوصفها محدَّدة بنتاجها، هي بكل موضوعيَّة فرع من فروع الأدب، ونحن مضطرُّون إلى ردِّها لموضوع لا يبعد عن الشعر. (دريدا، 2012، ص 245) بل وصل الأمر إلى القول أنَّ الفلسفة ليست سوى الأدب (ماشيري، 2009، ص 20). وأكثر الأمثلة وضوحاً، في أسبقيَّة الأدب وتبعيَّة الفلسفة له، هو الفلسفة الوجوديَّة، فالأدب الوجودي الغارق في التمزُّق والخوف والغثيان واللاحقيقة هو في الحقيقة الخلفية الأساسية للفلسفة الوجودية. (شيا، 2009، ص 112)

والنماذج الوجوديَّة الكبرى التي يحلّلها هيدجر في كتابه الوجود والزمان، معتبراً أنَّ الفلسفة الأوروبيَّة السابقة كلها قد أهملتها، إنَّما تمَّ الكشف عنها وبيانها بواسطة 4 قرون من الرواية الأوروبيَّة، فقد اكتشفت الرواية بمنطقها وطريقتها كل جوانب الوجود.(كونديرا، 2007، ص 18) فرواية (الرجل الذي لا خصال له) لـ(روبرت موزيل) موسوعة وجوديَّة فريدة لعصرها. (كونديرا، 2007، ص 475)

في حين يعتبر (كولينوود) أنَّ العلم والفن، ليست مجرَّد أخطاء في أشكال للتعبير الروحي والثقافي، بل هي (أخطاء فلسفيَّة) أو بمعنى أدق (أشكال فلسفيَّة قاصرة) وذلك بسبب عدم (اكتمالها) وقد يتطوَّر الأمر إلى مرحلة موت الفن كما عند (هيغل)، بعد أن يندمج بالفلسفة.(نوكس، 1985، ص 127) ممَّا يفهم من ذلك أنَّ الفن (بما في ذلك الأدب) هو مرحلة أولى من الفلسفة، هو فلسفة لم تنضج بعد.

وقد يساعدنا الأدب على فهم الأفكار الفلسفيَّة، وفقاً لرؤية (ليتشه) حين اعتبر أنَّ انهماك الفيلسوف (ليفيناس) بالقضايا الأخلاقيَّة، التي تكشَّفت له بعد القراءة النهمة لأعمال (دوستوفسكي) و(تولستوي) و(بوشكين) و(غوغول)، وبالتالي كانت قراءة مؤلفات الكتَّاب الروس الكبار، تحضيراً جيداً لقراءة (أفلاطون) و(كانط). (ليتشه، 2008، ص 242) وكل ذلك يؤكّده (كامو) لكونه يرى أنَّ الروائي الروسي (دستوفسكي) هو معلمه الأول، وأنَّ روايته (الشياطين) The Possessed من أهم أربع كتب، كان لها تأثيرها البالغ عليه، بل هناك من يزيد على ذلك، بأنَّ فهمنا لـ(دستوفسكي) يمكن أن يكون مفتاحاً لفهم التيارات العقلانيَّة والوجوديَّة الحديثة، ولولا النزعة الدينيَّة عنده (وهو يشبه ما حدث مع كيركيغارد) لكان له تأثير أكبر، إلَّا أنَّ تغيُّر البيئة ومواجهة العلمانيَّة أعاقت استمراريَّة وعمق

ذلك التأثير.(Novak, 1964, p 63) وذلك ما يبرِّر ما يسمع كثيراً، عن ذلك الوصف الذي يوصف به (دستوفسكي)، كونه أعظم كاتب بين الكتاب الوجوديين، وليس من العامَّة فقط بل من أنصار الوجوديَّة أنفسهم. (أيرس، و ماغي، 2018، ص ص 50-52)

أمَّا (ريشنباخ) فيرى أنَّ هناك علاقة بين الفلسفة والأدب، ولكنها ترتكز على أسبقيَّة الفلسفة، لكونه المعنيَّة بطرح الأسئلة، والأدب معني بالإجابة، لذلك نجد العقل الفلسفي طوال تاريخ الفلسفة، مقترناً بخيال الشاعر، فحيثما كان الفيلسوف يسأل كان الشاعر هو الذي يجيب.(ريشنباخ، 1979، ص 34) وهناك دراسات حاولت أن تسير في هذا السياق، مؤكِّدة على تأثُّر الأدباء بأفكار الفلاسفة، نذكر منها، رواية (سبريديون) لـ(جورج صاند) وأيضاً نصوص (كينو) النقديَّة، التي يبدو واضحاً أنَّه تأثَّر فيها بـ(هيغل).(ماشيري، 2009، ص 98) كما أنَّ هناك شعراء تأثروا بالمدارس والتيارات الفلسفيَّة، إذ يشير شاعر الفرنسيَّة (مالارميه) لذلك صراحة، بقوله أنَّ (هيغل) هو جبَّار الروح البشريَّة، ولمن يطالع نصوص (مالارميه) يكتشف سطوة فكر (هيغل) عليه، بل إنَّ (الهيغلية) هي الرابط السري بين نصوصه. (ماركيه، 2005، ص 189)

خاتمة :

يمكن القول بشكل عام، أنَّ التغيُّرات الكبرى والجذريَّة التي طرأت على الأدب الغربي (أولا) ولكن ببطء، و(لحقت) به الفلسفة، ولكن بوتيرة أسرع، كان لها التأثير الأكثر وضوحاً، على علاقة الفلسفة والأدب، وهي علاقة ليست حكراً على الفلسفة والأدب، بل تأثير التغيرات طال كل أشكال المعرفة فهناك علاقة بين الأدب والعلوم الإنسانيَّة مثل علم الاجتماع وعلم النفس، بل والعلوم التطبيقيَّة مثل البيولوجيا، كما دخلت الفلسفة في علاقات ترتفع وتنخفض وتيرتها بين الحين والآخر، مثل علم النفس والاجتماع والفيزياء وغيرها.

هذا إضافةً إلى أنَّ مفهوم الأدب ومفهوم الفلسفة، مفهومان متغيران أصلاً، فما يمكن أن يعد فلسفة في حقبة ما قد لا يعد كذلك في حقبة أخرى، ولعلَّ الفكر الشرقي القديم وفلسفة العصور الوسطى خير مثال على ذلك، ولا تستثنى من ذلك الفلسفات المعاصرة التي تصارعت فيما بينها بين وضعية ومثاليَّة، تقصي بعضها بعضاً من مجال الفلسفة، والأمر ذاته

ينطبق على الأدب، حيث تتغير معاييره، وتتبدل وظيفته، من عصر لآخر، وليس أدل على ذلك من إشكاليَّة الرمزيَّة والحداثة، كقضيتين جوهريتين، يقسمان تاريخ الأدب ومدارسه. أمَّا النقد الأدبي، فلابد من التأكيد على أنَّ الأسبقيَّة للأدب في الظهور على ميدان الحضارة الإنسانيَّة، ولكن قراءة الأدب بوصفه فلسفة، كان متأخراً، وما كان له أن يوجد لولا المرحلة المتقدِّمة التي وصلت إليها الفلسفة وتطور مناهجها وتوسُّع وتعدُّد اهتماماتها.

ويبقى الحديث عن صلة الأدب بالفلسفة في ثقافتنا العربيَّة، أمراً تحول دونه معوِّقات كثيرة، فلا يخفى على أحد، السمعة السيئة التي تحظى بها الفلسفة، في البلدان العربيَّة الإسلاميَّة، والتي أسست على مواقف تيارات وفتاوى بعض التيارات والفقهاء، بدءاً من الغزالي مروراً بابن تيميَّة وانتهاءً بالتيار السلفي في شكله المعاصر، وهو وضع جعل من الفلسفة محل اتهام وعزلة لا يرغب أحد في أن يدعي وصلاً بها، سواء في العلوم الإنسانيَّة، أو الأدب بشكل خاص.

دون أن يعني ذلك حدوث قطيعة كاملة، لأنَّ هناك الكثير من التقارب والصِّلات، وإن كانت ليست بذات العمق الذي حدث في الفكر الغربي، سواء بسبب وضع الفلسفة كما أشرت آنفاً، أو لعدم تعرضهما لذات المتغيرات التي تعرَّض لها الفكر الغربي، وعلى رأسها شيوع النقد الأدبي والفلسفة النقديَّة، ممَّا أفسح المجال لسيطرة مدارس التراث، وتقديم السابق على اللاحق، وهو ما تسبَّب في حل شلل وجمود عام في الأدب.

في المجمل استمر الجانب الأدبي في الثقافة العربيَّة له الكلمة العليا، منفرداً بمكانته، محافظاً على شكله التقليدي، دون حدوث تجديد حقيقي، أو تطورات متكرِّرة، واستمرَّت الفلسفة على حالها، تمثِّل في أحسن الأحوال علم الكلام، والإشكاليَّات ذات الطابع الفقهي والمذهبي، وهي بطبيعة الحال منزوية في الزاوية، لا تؤدي أي دور يذكر ولا تتماهى مع أي ضرب من ضروب المعرفة.

المصادر والمراجع:

أولا المراجع العربية:

- أفايه، محمد، (2014) **في النقد الفلسفي المعاصر**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- أفلاطون، (2004) **الجمهورية**، فؤاد زكريا (مترجما)، الإسكندرية، دار الوفاء.
- أفلاطون، (2000) **فيدروس**، أميرة مطر (مترجما)، القاهرة، دار غريب.
- أيرس مردوخ و براين ماغي، (2018) **نزهة فلسفية في غابة الأدب**، لطفية الدليمي(مترجما)، بغداد، دار المدى.
- بارت، رولان (وآخرون)، (1992) **الأدب والواقع**، عبدالجليل الأزدي و محمد معتصم(مترجما)، الجزائر، منشورات الاختلاف.
- بارت، رولان، (2002) **الكتابة في درجة الصفر**، محمد نديم (مترجما)، الرباط، مركز الإنماء الحضاري.
- بلكفيف، سمير(محررا)، (2015) **الفلسفة الفرنسية المعاصرة**، بيروت، كلمة للنشر والتوزيع.
- بوبر، كارل، (1999) **بحثا عن عالم أفضل**، أحمد مستجير (مترجما)، القاهرة، هيئة الكتاب.
- بوشنسكي، أ.م، (1990) **الفلسفة المعاصرة في أوروبا**، عزت قرني (مترجما)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة.
- تد، هوندرتش(محررا)، (2002) **دليل أكسفورد الفلسفي**، نجيب الحصادي (مترجما)، بنغازي، المركز الوطني للبحث والتطوير.
- تريشيه، (د.ت) **الأدب الفرنسي في القرن العشرين**، حامد طاهر(مترجما)، القاهرة، مطابع العمرانية.
- الجهاد، هلال، (2001) فلسفة الشعر الجاهلي، دمشق، دار المدى.
- دريدا، جاك (وآخرون)، (2012) **مدخل إلى التفكيك**، حسام نايل(مترجما)، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.

- دريدا جاك، (2019) **هوامش الفلسفة**، منى طلبة (مترجما)، بيروت، دار التنوير.
- دولوز، جيل، (1998) **نيتشة**، أسامة الحاج (مترجما)، القاهرة، المؤسسة الجامعية.
- رسل، برتراند، (2010) **تاريخ الفلسفة الغربية** (ج1)، زكي نجيب (مترجما)، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.
- رسل، برتراند، (2016) **مشكلات الفلسفة**، سمير عبدة (مترجما)، دمشق، دار التكوين.
- ريشنباخ، هاينز، (1979) **نشأة الفلسفة العلمية**، فؤاد زكريا (مترجما)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- شيا، شفيق، (2009) **في الأدب الفلسفي**، القاهرة، المؤسسة الجامعية.
- طودوروف، تزفيطان، (2007) **الأدب في خطر**، عبدالكبير الشرقاوي (مترجما)، الدار البيضاء، توبقال للنشر.
- عبدالباري، ماهر، (2009) **التذوق الأدبي**، عمّان، دار الفكر.
- عبدالبديع، لطفي، (1997) **ميتافيزيقا اللغة**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.
- حمودة، عبدالعزيز، (1971) **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية**، الكويت، المجلس الأعلى للثقافة.
- عوض، رياض، (1994) **مقدمات في فلسفة الفن**، طرابلس، جروس برس.
- غادامير، هانز، (2007) **الحقيقة والمنهج**، حسن كاظم، علي صالح (مترجما)، طرابلس، دار أويا.
- فريس، إيمانويل و موراليس، (1990) برنار، **قضايا أدبية عامة**، لطفي زيتوني(مترجما)، الكويت، المجلس الوطني الثقافة.
- ليتشه، جون، (2008) **خمسون مفكرا أساسيا معاصرا**، فاتن البستاني(مترجما)، بيروت المنظمة العربية للترجمة.
- ماركيه، جان، (2005) **مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة**، كاميل داغر (مترجما)، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

- ماشيري، بيار، (2009) **بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية**، جوزيف شريم (مترجما)، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
- ماكوري، جون، (1990) **الوجودية**، إمام عبدالفتاح (مترجما)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- المحمداوي، علي(محررا)، (2013) **الفلسفة الغربية المعاصرة** (ج 1)، دار الأمان، الرباط.
- النبواني، خلدون، (2017) **نصوص أدبفلسفية**، باريس، هارتمان/كتابوك.
- نوريس، كريستوفر، (1989) **التفكيكية النظرية والممارسة**، صبري محمد (مترجما)، الرياض، دار المريخ.
- نوكس، إ، (1985) **النظريات الجمالية كانط-هيجل-شوبنهار**، محمد شفيق شيا (مترجما)، بيروت، بحسون الثقافية.
- نيتشة، فريدريك، (2002) **إنسان مفرط في إنسانيته** (ج1)، محمد الناجي(مترجما)، الدار البيضاء، دار إفريقيا الشرق.
- هازار، بول، (2009) **أزمة الوعي الأوروبي**، يوسف عاصي (مترجما)، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
- هبرماس، (1995) **القول الفلسفي للحداثة**، فاطمة الجيوشي (مترجما)، دمشق، وزارة الثقافة السورية.
- وايزمان، فريدرك (وآخرون)، (1994) كيف يرى الوضعيون الفلسفة، نجيب الحصادي (مترجما)، الرباط، دار الآفاق.
- وليك، رنيه و وآرن، أوستن، (1992) **نظرية الأدب**، عادل سلامة (مترجما)، الرياض، دار المريخ.
- ويلسون، كولن، (2004) **اللامنتمي**، أنيس زكي (مترجما)، بيروت، دار الآداب.
- ويلسون، كولن، (1978) **المعقول واللامعقول في الأدب الحديث**، أنيس زكي (مترجما)، بيروت، دار الأدب للملايين، بيروت.
- ويلسون، كولن، (1971) **سقوط الحضارة**، أنيس زكي (مترجما)، بيروت، دار الآداب.

- كونديرا، ميلان، (2007) **ثلاثية حول الرواية**، بدر الدين عرودكي (مترجما)، القاهرة، المشروع القومي للترجمة.
- ريكمان، هـ.ب، (1979) **منهج جديد للدراسات الإنسانية**، علي عبدالمعطي. و علي محمد علي (مترجما)، بيروت، مكتبة مكاوي.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Chen, Melvin,(2017) *Philosophy and Literature: Problems of a Philosophical Subdiscipline*, Philosophy and Literature, Volume 41, Number 2, October.
- GLAD CLARENCE E.,(1995) *PAUL AND PHILODEMUS Adaptabiliry in Epicurean and Early Christian Psychagogy*, E.j. BRILL, LEIDEN, NEW Y ORK.
- Desblache,Lucile,(2012) *Monstrosity and the Posthuman in Philosophy and Literature Today*, Comparative Critical Studies, Edinburgh University Press, New York .
- Dobre, Marius,(2011) *HOW TO BUILD AN, ANTI-THEOLOGY, THE CASE OF EMIL CIORAN*, European Journal of Science and Theology, Vol.7, No.3 , September.
- Florentsen, Peter,(1996) *Deconstruction, Philosophy and Literature, Readings of Jacques Derrida*, Orbis Litterurum.
- Makumba, Maurice,(2005) *Introduction to Philosophy*(Philosophy series), Paulines Publications Africa.
- Novak, Michael,(1964) *The Existentialism of Dostoievski*, Blackfriars, XLIV, February.
- Wilson, Colin,(1968) *The stature of man*, Greenwood Press, New York.
- Wilson, Colin,(1969) *Voyage to a beginning; an intellectual autobiography*, Crown Publishers, N. Y.